عندما تعرفت إلى الرفيق فؤاد قازان مفكراً ومؤرخاً
بعد عودته من باريس ودوره في المقاومة ضد النازية

الشيء الذي يؤلمنا أكثر من سواه، ونحن نجتمع لتكريم فقيد الفكر التقدمي فؤاد قازان، هو أنّ فقيدنا لم يتمكّن من إنجاز كامل المهمة التي اقترح على حزبه منذ أربع سنوات أن يقدمها هدية لشعبه؛ في معركة الحرية والتقدم التي كان يقوم بها؛ كإسهام منه، بالقلم، في هذه المعركة. لم يكتمل عنده الجزء الثالث من كتابه عن تاريخ لبنان. وغادرنا وهو أسير هذه الحسرة؛ أسير هذا الإحساس بأنّه لم يتمكن من إنجاز كامل المهمة الكبيرة التي حملها بشرف.

الشيء الآخر الذي يؤلمنا أنّ فؤاد كان يمكن أن يكون معنا في هذه الأيام، كما كان دائماً؛ برغم ثقل المرض، عنصر حركة دائمة في الدفاع عمّا تتعرض له حرية الفكر والعمل من أخطار. كان يمكن أن يكون مع العامل الذي استشهد وهو يكافح من أجل اللقمة ومع المزارع الذي سقط وهو يهتف ضد الاستغلال، ومع المعلّم الذي يطارد ويلقى في الشارع لأنّه، وهو الذي يبذل من ذاته لينقل المعرفة إلى الأجيال الجديدة، يستخدم حقه البسيط في المطالبة بتحسين أوضاعه ليتمكّن من الإسهام بشكلٍ أفضل في البذل من أجل هذه الأجيال.

إننا لفخورون، ومن حقنا أن نفخر، بأن فؤاد الذي غاب قبل الأوان الطبيعي قد خلّف لنا تراثاً يستطيع الفكر التقدمي وكل الحركة التقدمية في بلادنا أن يعتزا به.

ذلك أن فؤاد قازان الذي كافح طيلة أربعين عاماً في قلب الحركة الوطنية والتقدمية اللبنانية، كمناضل شيوعي، لم يبخل على هذه الحركة بأي جهد يملكه. ولم يتخلى عن السلاح. ولم يتردّد في انتقائه ذلك السلاح وامتشاقه،

بالتنظيم دائماً، وبالقلم، وبالبندقية أيضاً عندما اقتضت ذلك الظروف. وقد انخرط – وهو المناضل تحت راية الماركسية التي لا تكتفي بفهم العالم بل تعمل على تغييره – انخرط في النضال العملي بكل إمكانياته وأعصابه، ينظم الرفاق، يقودهم، ويواجه معهم المهمات اليومية، يبني حجراً فوق حجر. يناضل من أجل الاستقلال. ويتصدر المعارك من أجل الحرية. وينخرط، وهو في فرنسا في صفوف المقاومة كمناضل شيوعي لبناني من أجل الإسهام في القضاء على هذه النازية. ولقد برز ذلك كلّه، مجسداً القناعات بالعمل مقاتلاً صلباً ضد كافة أشكال القهر الإنساني واستعباده.

وبرز، في ذلك كله، مثال الشيوعي الراسخ المبدأ، الكفاحي الروح، الوطيد الثقة بالشعب وبالمستقبل، الأممي والوطني، الذي يعي بعمق أنّ قضية الكادحين في العالم هي واحدة، وأنّ تحرير وطنه لبنان ووطنه العربي مسألة وثيقة الارتباط بكفاح البشرية من أجل تحررها وتقدمها.

إنّ الإيمان النهائي بقضية الاشتراكية، والثقة اللامتناهية بحتمية انتصارها، أذكيا لدى مناضلنا فؤاد، روحاً من المثابرة وضرباً من الإرادة في الاستمرار بالعطاء نادرين وخارقين يثأران ممّا يسببه المرض من قصور همّة في الجسد، فيعجز المرض عن أن يدب الوهن في العزيمة. وهكذا يكمل فؤاد مسيرته مناضلاً في ساحة الكتاب والفكر بنفس البأس الشيوعي الذي عوّدنا عليه ملتهباً في جبهة القتال، فينهض معظم السنوات الأربع الماضية، لتحمل عبء، هو، عادة، عبء المؤسسة، عمل الجماعة، ينهض بكل قدرته، وهو على فراش المرض ليسهم في إعادة الاعتبار إلى الحقيقة في كتابه تاريخ لبنان، منطلقاً من وجهة النظر التي تؤكد بأنّ الجماهير في وطننا، مثلما هي في كل وطن، الصانعة الحقيقية للتاريخ. وقد بدأ هذه المهمة في إلقاء أضواء جديدة على حركة طانيوس شاهين، التي تشكل في لبنان وفي المشرق العربي أول حركة ثورية من نوعها.

إنّ تكريمنا هذا لفؤاد قازان ليس في النهاية إلاّ وقفة تقدير لمفكّر تقدمي جسد، بالعمل وبالعلم وبالفكر، مغزى مهماً جداً في حياتنا المعاصرة، مغزى أنّ المعارك الحقيقية، المعارك المصيرية التي يخوضها المفكّر هي تلك التي يخوضها مع الجماهير، مع الشغيلة من العمال والفلاحين الذين يشكلون بجهدهم وكفاحهم أداة التغيير، ويصنعون للأجيال بالعرق وبالدم مستقبلها الأفضل.

إنّ تكريمنا هذا هو أيضاً وقفة إكبار لتلك الشعلة التي لن تنطفئ جذوتها في فؤاد النموذج الفذ للفكر والمناضل.

إنّ التفاؤل الصارخ الذي كان يلتمع، باستمرار، في قلب فؤاد وفي عينيه، سيبقى، دائماً، ماثلاً في القلوب والأذهان، أقوى من الغياب وأقوى من الموت.

ولأنّه أعطى ذاته لقضية أكبر من ذاته، كبرت ذاته بكل غنى القضية. وقد تحققت في فؤاد المعجزة، معجزة احتواء فرد واحد لخط الحركة العامة. وكان أجمل ما في هذه المعجزة هذا الوعي لقانونها الداخلي، بحيث تتحقق مسلمة قيادتها للإرادة الصلبة، جاعلة ما سودته الأقلام عن حرية الفرد والحرية المطلقة يبدو ثرثرة ولغواً أمام مثال الفرد الذي قبض على زمام حريته حين احتقر الأنانية الفردية. إننا نرى ملامح وجه فؤاد قازان ترتسم أمامنا حين نقرأ ما كتبه في مقدمة تاريخه للشعب اللبناني:

" ... الأفراد والعباقرة هم في النهاية نتاج الإبداع الجماهيري في التاريخ..."

هذه الكلمات، التي قد يقرأها وكأنّها حقيقة علمية بديهية، تكتسب حرارتها الإنسانية حين يضيف في المقدمة ذاتها:

" حسبي طموحاً واعتزازاً أني قبضت بكلتا يدي، وبكل ما سلحني به الحزب، وأخذت على عاتقي، كما قطعت عهداً أمام وجداني وأمام رفاقي. بعد تكنيس العوائق والعثرات من طريق الحزب، القيام بهذه المحاولة الشاقة الصعبة والشيقة في آن واحد، التي تنتقل لأول مرة من حيز الفكر إلى حيز الواقع".

لقد أعطى فؤاد قازان ذاته لشعبه وللإنسانية التقدمية جمعاء، فكانت الحصيلة أنّ الأجيال الحالية والمقبلة من رفاقه وأبناء شعبه، ستكون أكثر إدراكاً لكونها جزءاً من تلك الحركة

في صنعها بمزيد من الوعي ويمكن أن نقول، مجازاً، إنّ جزءاً من هذا الوعي المتزايد لتاريخنا ولإنسانيتنا مرتبط من الآن وصاعداً باسم فؤاد قازان، كواحد من الرواد الذين أعطوا كل ما يملكون لهذه الحركة. لذلك لا يشعر رفاق فؤاد قازان بأنهم يرددون كلام مناسبات عندما يقولون أنّ فؤاد لم يمت، ولن يموت.

في هذه الكلمات التي ودعت فيها رفيقي فؤاد قازان إنما أعبّر عن عمق معرفتي به وعمق الصداقة التي ربطتنا على امتداد الأعوام التي قضاها في لبنان بعد عودته من باريس حتى آخر عمره. وقد كنت على الدوام إلى جانبه أقدم له ما كان بحاجة إليه وما كنت قادراً عليه لإتمام المهمات التي أشرت إليها في كتابيه "تاريخ لبنان" و"تاريخ الحركة الصهيونية". ومن الطرائف الغريبة العجيبة التي واجهته عندما رافقته للسفر إلى موسكو عن طريق دمشق أن الأمن العام السوري في داخل المطار منعه من السفر. فاتصلت يومها بالوزير الشيوعي في الحكومة السورية ليعرف لنا سبب المنع ولإيجاد الحل لمتابعة سفره. فعاد إلينا رفيقنا الوزير وهو يضحك بسخرية قائلاً لنا بأن سبب المنع يعود إلى عام ١٩٣٦ في أعقاب المظاهرة التي كان قد شارك فيها فؤاد قازان ضد الانتداب الفرنسي. وكان ذلك دليلاً على أن ما يتخذ من قرارات تعسفية يظل في ظل أنظمة الاستبداد قائماً وبمفعول رجعي مهما طال الزمن ومهما تغيرت فيه الشروط التاريخية.